تحرير عماد الدين زنكي لمدينة الرُّها

محمد بن عبد العزيز المخزومي

- مدينة الرُّها:

هي مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ، وهي أورفا حالياً في تركيا.

وكانت الرُّها مدينة كبيرة، فيها كنيسة عظيمة، وفيها أكثر من ثلاثمائة دير للنصارى، وهي اليوم خراب.

والرُّها مدينة رومية عظيمة، فيها آثار عجيبة، وهي بالقرب من قلعة الروم من الجانب الشرقي الشمالي من الفرات.

وقال عنها المؤرخ السرياني ميخائيل السوري الكبير: إنها مدينة المسيحيين المجيدة التي ضربها سيف الترك.

وقال أبو شامة في الروضتين:" وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس،ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرُّها، والرُّها هي أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق".

أصل البيت الأتابكي:

أتابك: كلمة تركية مركبة من: أتا – وتعني (المربي) وبك: وتعني (الأمير).

فأصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سنقر وكان تركياً من أصحاب السلطان ركن الدين ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وهو عم الملك دقاق بن تتش الذي كان هو وأبوه سلطاني دمشق مدة بإقطاع ملك شاه إياها لتتش، وكان قسيم الدولة آق سنقر من أصحاب ملك شاه وأترابه وممن ربي معه في صغره، واستمر في صحبته إلى حين كبره، فلما أفضت السلطنة إلى ملك شاه تبناه بعد أبيه، وجعله من أعيان أمرائه، وزاد قدره إلى أن صار يتقيه وزيرهم نظام الملك، ومن الدليل على علو مرتبته، تلقيبه قسيم الدولة، وكانت الألقاب حينئذ مصونة لا تعطى إلا لمستحقيها، وكان يقوم إلى جانب تخت الملك عن يمينه لا يتقدم عليه أحد وقدمه على جيش عظيم سيّره إلى الموصل.

ثم أشار الوزير نظام الملك على السلطان ملك شاه، أن يولي قسيم الدولة آق سنقر مدينة حلب وأعمالها، ومنبج، وحماه و اللاذقية، فأقطعه الجميع وظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده.

ثم ملك بعد موت ملك شاه، تكريت، والرحبة، وحمص، وأفامية، ثم قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

عماد الدين زنكي:

لما قُتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه أمراء الموصل الذين كانوا يلونها من قبل السلاطين السلاجقة واحداً بعد واحد إلى أن كبر وصار يحضر معهم الحروب.

وظهرت شهامته وكفايته وقدم مع الأمير مودود دمشق، وغزا معه الفرنجة بطبرية وغيرها، فاشتهر ذكره وبقي يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي . ثم أقطع زنكي مدينة واسط و البصرة.

ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد:

ولي الموصل في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، ثم شرع في أخذ البلاد، فافتتح جزيرة ابن عمر، ثم مدينة إربل، وسنجار، والخابور، ونصيبين، ودارا، وبلاد الهكارية، وبنى قلعة العمادية، وملك من ديار بكر طنزة، وإسعرد، ومدينة المعدن، وحيزان، وحائي، وعانة وغيرها.

واستولى على قلاع الحميدية وولاياتهم من العقر، وقلعة شوش، وعبر الفرات فملك منبج، وحلب، وحماه، وحمص، وفتح شيزر، وبعلبك، وحاصر دمشق،ولم يفتحها.

وكانت الفرنجة قد اتسعت بلادهم وعظمت هيبتهم وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين إلى عريش مصر، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد، ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهل الرقة وحران فقد كانوا معهم في ذل وهوان، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر، ثم زاد شرهم فجعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وجزية يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم.

ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود إلى وطنه أخذوه.

وأما حلب فإن الفرنجة أخذوا منهم أعمالها مناصفة، حتى في الرحا التي على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين.

فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين: ولاّها لعماد الدين زنكي، فغزا الفرنجة في عقر ديارهم وأخذ للموحدين منهم بثأرهم، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل.

فتح الشهيد الرُّها:

عرف زنكي الذي تميز بالانضباط أن الخطر الأعظم على ملكه كامن في الرُّها ، فقد أراد الفرنجة دوماً الاستيلاء على حلب لسد الثغرة فيما بين كل من أنطاكية والرُّها، وليسهل عليهم بعد ذلك الاستيلاء على الموصل، ومن ثم الإطباق على أراضي الشام والجزيرة، ولهذا كان رد زنكي الطبيعي تجاه هذا، العمل في سبيل تحرير الرُّها.

وتحرير الرُّها كانت له فوائد جمة: منها سد المنافذ الشمالية لبلاد الشام في وجه الفرنجة في فلسطين.

فكان همّ زنكي وشغله الشاغل تحرير الرُّها، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها،

وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة جماعاتٍ وأفراد، استطاع زنكي سنة 1144م أن يحرر الرُّها، ويقضي على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق.

ولقد عم لسقوط الرُّها صدى بالغ الاتساع والتأثير في الشرق والغرب، وكانت تلك أقسى ضربة حلت بالفرنجة منذ دخلوا الشام، وأفدح خسارة ألمت بهم.

والآن بعد هذه المقدمة سنذكر كيف تم فتح الرُّها من قبل زنكي، وذلك من خلال مصدرين اثنين:

أولاهما – المصادر العربية: لاسيما ما أورده أبو شامة في كتابه الروضتين.

وثانيهما – المصادر السريانية: وسنقتصر على رواية المؤرخ الرهاوي المجهول، فهو أفضل من وصَّف لتحرير الرُّها ودخولها من قبل زنكي.

1- المصادر العربية:

ذكر أبو شامة في كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " فتح الشهيد الرُّها فقال:

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، كانت لجوسلين وهو عاتي الفرنجة وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرُّها .

وكان للفرنجة على المسلمين شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبحنان عدة حصون: كسروج، والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين الرقة.

وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم يصبحوها بغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لايُنال منها غرضاً مادام جوسلين بها.

فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني وجيل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالاً فيه إبقاء، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويطلبها وسواها يروم. ووكّل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده.

فما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظن أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرُّها إلى بلاد الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرُّها،وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي.

ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أُخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردّوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً، ثم رتب البلد وأصلح شأنه وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنجة من المدن والحصون والقرى كسروج وغيرها.

ثم أخلى الديار الجزرية من معرة الفرنجة وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين.

وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير منة الصالحين والأولياء، وقال بعضهم:

رأيت زنكي في المنام بعد موته بأحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك ؟ فقال: غفر لي، فقلت: بماذا ؟ فقال: بفتح الرُّها .

وفاه زنكي رحمه الله:

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملك شاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحاصرها وحاصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قلَّ، للحزم الذي

كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحاصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله.

ثم دفن بصفين عند أصحاب علي أمير المؤمنين رضي الله عنه ثم نقل إلى الرقة، رحمه الله. وكان ذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

2- المصادر السريانية – رواية المؤرخ الرهاوي المجهول:

بدأ زنكي الذي استراح وأمن جانب الفرنجة والأمراء المسيحيين بالهجوم على أعدائه من التركمان، فعبر الفرات وهاجم أبناء أرتق وتمرتاش وأبناء داود، وأخذ منهم أسرى واحتل دارا وتل موزن وجمالين وجميع شبختان، وأخذ حاني وأرقين والحميمة، وفي شدتهم استغاث أبناء أرتق بجوسلين صاحب الرُّها ، وأعطوه مقابل مساعدته حصن بابولا في أراضي كركر فاستعد لمساعدتهم ضد زنكي.

وقد كان ذكياً وماكراً فعقد السلم مع الأرائقة الذين كانوا راغبين في هذا السلم، لأنهم كانوا يعلمون أنه ليس باستطاعة جوسلين مساعدتهم كما يجب.

وشعر زنكي بالغضب من جوسلين ولم يوفر أي محاولة أو وسيلة لاحتلال الرُّها، وكان يرسل الجواسيس باستمرار للتأكد من أن المدينة كانت خالية من الجند، وكان في حران زعيم مسلم يدعى فضل الله بن جعفر، وكان يكره رجال الرُّها، وكان الجواسيس يأتون إليه وهو يوجههم وفي ذلك الوقت كان زنكي يحاصر آمد.

وجمع جوسلين جيوشه وذهب للإغارة على المقاطعات القائمة على الفرات قرب بالس والرقة، وبادر رئيس حران إلى إخبار زنكي وكان في آمد: إن الرُّها باتت خالية من الجنود، ولذلك أرسل زنكي على الفور جنوداً مدربين تحت قيادة صلاح الدين (الياغسياني) الشجاع، وأوعز إليهم أن يعملوا جهدهم لاحتلال الرُّها وأخذها على حين غرة، وإذا لم يستطيعوا فتحها فعليهم أن يهاجموها ويختبروا مدى قدرتها، فإذا وجدوا الدفاع قوياً وفعالاً فعليهم أن يعودوا وإلا فعليهم أن يحدقوا بها ويستدعونه.

وما إن بدأت الحملة سيرها حتى سار زنكي على أثرها، وقد زحفت الحملة بسرعة طيلة ذلك اليوم والليلة التالية، وهاجمت المدينة عند الفجر في يوم الثلاثاء 28 تشرين الثاني، ووصلت إلى الهضاب المحيطة بها ثم قتلت بعض الرجال الذين كانوا بين الأسوار، وعندما رأت ضعف المدينة

أرسلت إلى زنكي رسالة بواسطة الحمام الزاجل ليأتي حالاً، فوصل في فجر يوم الخميس على رأس جيش يفوق عدده عدد نجوم السماء، ملأ السهول حول المدينة وأحاط بها فرقة تلو فرقة. ونصب خيامه حولها كخيام المتسولين، ونصب زنكي خيمته مقابل باب الساعات على التلة فوق كنيسة الاعتراف، وإلى الشرق منه نصبت خيمة الملك العظيم ابن السلطان، وإلى الشمال كانت خيمة الإيراني العاقل جمال الدين الوزير. أما صلاح الدين العاقل العظيم القائد العام لجيش زنكي فقد نصب خيمته في الغرب مقابل باب النافورة على تلة المقبرة، وفوقه في أعلى وادي سليمان كان زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور مقابل حدائق بارصوما، وفي شرقي باب كاساس كان الزعيم الكبير دبيس سيد الأراضي المنخفضة مقابل بابل، وشمال موقعه هذا وفي حديقة بوازن كان أبو علي صاحب زعفران وارقنين، وفي الشمال الشرقي كان أبناء باقساق وهم حكام سبابرق على شواطئ باب كاساس عسكر عين الدولة سيد شبختان، وجنوب هذا عسكرت قبائل من الأكراد يليهم كثير من الرجالة والعرب ورجال من حلب، وفي الغرب مقابل القلعة عسكر حسان صاحب منبج ونصب خيامه.

وكانت المدينة ضعيفة، ولم يكن بها أي جند، بل فيها الإسكافيون والنساجون، وتجار الحرير والخياطون والكهنة والشمامسة فقط، وكان بها ثلاثة أساقفة هم: بابياس من الفرنجة (كان هذا هو المطران المسؤول)، وباسيلوس السرياني بن شومنا وهو من أبناء المدينة والأراضي، وأهنانيوس.

فنصب الأعداء آلات الحصار، وكل قائد فعل ذلك في القسم الذي أمامه. وقد ضربوا السور بعنف، وقد حفروا الأنفاق تحته في الجانب الشمالي تحت الجسر خارج الساعات، ووصلوا إلى أسس السور بينما كان القتال مستعراً في الخارج ومستمراً.

وقد حاول زنكي إضعافهم بإرسال اقتراحات للسلم – رفضوها – لأنه كان يرغب أن تستسلم له المدينة استسلاماً دون أن تدمر ويقتل الأهلون، فأرسل لهم:" أنصتوا أيها الحمقى إنكم ترون ألا أمل لكم بإنقاذ أرواحكم، لماذا تنتظرون وتأملون، أشفقوا على أنفسكم وأبنائكم وبناتكم وزوجاتكم ومدينتكم حتى لا يحل بها الخراب، وتصبح خالية من السكان ". وقد أجابوا زنكي بوقاحة؛ بالإهانات والسباب بشكل كله حماقات ليس لها مثيل.

وقد اقترح الأسقف السرياني بعد التشاور مع أسقف الفرنجة أن يكاتبا زنكي ويطلبا منه هدنة مؤقتة لزمن محدد حتى تأتيهم النجدة، وقد بدت هذه الفكرة جيدة، فكتبا الرسالة وقرأها للشعب،

وكان الهدف من إرسال الرسالة هو تأجيل النتيجة الحاسمة حتى يلتقطوا أنفاسهم، لأنهم فقدوا أملهم في الحياة، وكانوا متعبين ومنهوكي القوى في العمل المرهق على السور الجديد أمام مقالع الحجارة.

لذلك فكر الأسقفان أن يرتبا هدنة ليحصل أهل المدينة على بعض الراحة، ويتأجل ولو إلى فترة وجيزة الغضب الذي كان ينتظرهم، وقد رأيا السور وقد هدم من جميع جوانبه بفعل آلات الحصار.

وفي المقلع الشمالي أتلفت أسس السور ووضعت مكانها العوارض الخشبية وقطع الخشب بالنفط والزيت والكبريت حتى تحترق كالمشاعل عند اللزوم، وبذلك يسقط السور.

وعند ذلك قام رجل جاهل، وهو تاجر حرير يدعى حسنون ومد يده ومزق الرسالة فحدثت ضجة عظيمة وجلبة وفسدت هذه الخطة الحكيمة.

ومع أن زنكي كان قد قال:" إذا رغبتم في هدنة فإننا سنهبكم ذلك فإذا أتتكم النجدة، أولم تأتيكم عليكم أن تسلموا المدينة وتنقذوا أرواحكم ". فهو لم يكن راغباً في إتلاف المدينة، لكنه رأى ألا فائدة ولا جدوى من الإقناع.

وأصدر زنكي الأوامر بإشعال النار تحت السور، وهكذا أصبح هدم السور أمرا محتوماً ومقضياً، ونادى المنادون في المعسكرات يحثون الجند أن يستعدوا للقتال وان ينقضوا عندما يرون السور يسقط على المدينة ويدخلوها من خلال الثلمة.

وقد سمح بنهب المدينة لمدة ثلاثة أيام، والتهمت النار الزيت الكبريت وتسربت للعوارض الخشبية وصبوا الزيت عليها، بينما هبت ريح شمالية فدخل الدخان في أعين رجال الحامية في الأعلى وترنج السور العظيم وسقط.

وكان الخندق غير كاف لصد التركمان وقاتلت الحامية في الثغرتين من الفجر حتى الساعة الثالثة (24 كانون الأول) وبعد أن قتل الكثيرون اقتحم التركمان المدينة وبدؤوا بالذبح بالسيوف ولم يوفروا أحداً، وقتل في ذلك اليوم حوالي ستة آلاف شخص.

وعندما دخل التركمان هرب النساء والأطفال والشباب إلى القلعة العليا لينجوا من القتل، وكان الباب مغلقاً، وذلك طبقاً لتلك العادة السيئة التي اتبعها الفرنجة بألا يفتح الباب إلا بناءً على أمر من الأسقف، وألا ينفذ الأمر مالم ير رجال الحامية الأسقف بنفسه، ولهذا فقد انسحق الحشد سحقاً وذلك خوفاً من القتل والأسر، فأخذوا يدوسون بعضهم، فقد أصبحوا كتلة واحدة مسحوقة مؤلفة من حوالي خمسة آلاف شخص اختنقوا بهذا الشكل البائس، واقتيد حوالي عشرة آلاف ولد وبنت إلى الأسر.

وعندما وصل زنكي إلى القلعة ورأى منظر أولئك المختنقين تأثر كثيراً وأمر بإيقاف المذبحة، وقد قتل الأسقف الفرنجي بضربة فأس وهو في طريقه إلى القلعة، وقتل كثير من الكهنة والشمامسة والرهبان.

وعندما وصل زنكي إلى بوابة القلعة تكلم مع الحامية برفق وطلب منهم التسليم ووعدهم أن يوفر أرواحهم، فخرج قسم منهم يطلبون الأمان للفرنجة الموجودين في القلعة، وأقسم لهم زنكي قسماً مغلظاً أن يحفظ أرواحهم فسلموا بعد يومين من سقوط المدينة.

وفي اليوم التالي استعرض زنكي الأسرى في جميع المعسكرات، فاختير بعضهم وأرسلوا إلى الرق، وأمر بوضع الحرس على الأبواب لمنع أي شخص غريب من دخول المدينة، ورجع أهالي الرها الباقون إلى بيوتهم، وأعطاهم زنكي كل ما يحتاجونه من الطعام وشجعهم وواساهم وهكذا استقروا في بيوتهم.

أما أولئك الذين اختبؤوا تحت الأرض أو في الحصنين فقد نجوا، وعندما سقط الحصن الشمالي بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم أحضر زنكي المطران باسيلوس الذي كان تحت الحفظ يحرسه أحد الجنود.

وبدؤوا بإحضار الفرنجة الذين كانوا في الحصن مع نسائهم وأطفالهم، وكذلك الكهنة والشمامسة وأحضروا معهم كثيراً من الذهب والأواني الفضية وما شاكل ذلك، وقد التحق بهم الكثيرون لأن زنكي أقسم أن يأخذهم عبر نهر الفرات ويطلق سراحهم ويسمح لهم بالذهاب إلى حيث شاؤوا.

ودخل القائد صلاح الدين إلى القلعة وأخذ المطران من يده وقال:" نريد من قداستكم أن تقسموا على الصليب والإنجيل أن تكونوا صادقين معنا، وتخلصوا لنا، لأنكم تعلمون جيداً أنكم تستحقون القتل لأنكم قاومتمونا واحتقرتم نبينا، ونحن مستعدون أن نعاملكم معاملة حسنة ونطلق سراح جميع الأسرى. وأنتم تعلمون أنه منذ الزمن الذي استولى المسلمون به على هذه المدينة بقيت تحت سلطتهم مائتي سنة ازدهرت خلالها وأصبحت مدينة كبرى، ولكن اليوم بعد أن حكمها الفرنجة مدة خمسين عاماً أتلفوها وخربوا أراضيها كما ترون، وإن الحاكم هنا مستعد أن يعاملكم معاملة حسنة وهكذا تعيشوا بسلام وأن تلجئوا إليه وأن تصلوا لأجله ".

وخرج من القلعة جميع من كان فيها من رجال المدينة من السريان والأرمن وذهب كل منهم إلى بيته، ونهب التركمان كل ما كان يملكه الفرنجة من الذهب والفضة والأواني في الكنائس والكؤوس والطاسات والصلبان وكثيراً من الجواهر، ثم جمعوا الكهنة والنبلاء والزعماء ونزعوا منهم كل ما يملكونه وأرسلوهم أسرى إلى حلب، وأما الآخرون فقد اختاروا أصحاب الحرف وشغلوهم في حرفهم سخرة.

وبعدها دعا زنكي المطران الأعظم وحمله مسؤولية الإخلاص والصدق مع المسلمين ثم أعطى لرجال الرها بعض المواشي والثيران ، ثم عين التركماني زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور حاكماً للرها ومعه سبعة زعماء آخرون وشكل حامية قوية للدفع عن المدينة.

وبعد أربعة أيام من الحصار سار زنكي ماراً بحران إلى الرقة على الفرات وقد افتدى أهالي الرها أسراهم فأعيدوا إلى المدينة، وكان الحاكم زين الدين الحاكم رجلاً عادلاً وأظهر لهم منتهى العطف.

وفاة زنكي:

تقدم زنكي على رأس جيشه بكامله لحصار قلعة جعبر، فهاجمها بضراوة ولكن دون جدوى، لأنا كانت قلعة حصينة، وضايق القلعة بهجوم شديد لأنه قد أقسم ألا يرجع حتى يستولي عليها.

وفي ليلة الأحد الموافقة /14/ أيلول، وبينما كان زنكي نائماً لا يشعر بأي همّ من هموم الدنيا، ويحلم أن يعيش سنوات وسنوات إذا باثنين من خدمه المقربين ينقضان عليه ويقتلانه وهو في فراشه، ثم يهربان إلى القلعة.

وانتشر الخبر في تلك الليلة أن زنكي قد قتل، وخيم الرعب على المعسكر.

وانتشرت الفوضى فيه، فأخذ كل شخص يقتل الآخر، وكل من كان يحمل أي حقد على جاره ويملك أي سلطة، كان يقوم بالانتقام فوراً.

أما القادة والزعماء الذين فقدوا صوابهم وتشوشت أفكارهم فقد عقدوا اتفاقات سرية وهربوا إلى بلادهم.

وأما بقية الجند وجماهير الشعب والتجار فقد نهبوا، ونهب الحراس خيمة زنكي ومعسكره وأمواله ومخازن أسلحته وأملاكه الشخصية، وإبله وخيوله التي لا تعد ولا تحصى.

وأصبح ذلك الشخص الذي كان يرهب العالم في الأمس وحيداً في الصباح دون أن يجد من يدفنه ويواري جسده التراب.

ولم يدفن أحد زنكي بل تركوه حتى قيض الله له بعض الرجال الذين حملوه إلى الرقة ودفنوه هناك.

بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي:

هناك ترجمة جيدة لزنكي جاءت في كتاب: بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم، يعرف المرء من خلالها أن زنكي قد ضرب مثلاً أعلى في الجدية والالتزام بالنظام.

روى ابن العديم أن زنكي كان:" ملكاً عظيماً، شجاعاً جباراً، كثير العظمة والتجبر، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع، وينقاد إليه، ويكرم أهل العلم.

بلغني أنه كان إذا قيل له: أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه ".

ووصفه واحد من معاصريه بقوله:" كان أتابك زنكي قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس هرقاً من الزرع، ولا تمشي فرسه فيه، ولا يقدر أحد من الأجناد أن يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، وإن تعدى أحد صلبه عليها.

وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده حتى عمر البلاد بعد خرابها، وأحسن إلى أهالي مملكته.

وكان لايبقي على مفسد.....ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية، وأقام الحدود في بلاده ".

ولحاجة زنكي إلى المادة البشرية فرض على شعب دولته نوعاً من أنواع الجندية الإجبارية حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب.

وكان همّ زنكي وشغله الشاغل تحرير الرها، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها.

وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة كلاً وأفراداً استطاع زنكي سنة 1144م أن يحرر الرها والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق.

وذكر في الروضتين عن سيرة الشهيد أتابك زنكي قائلاً: وكانت من أحسن سير الملوك وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف.

قال ابن الأثير: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى الأملاك فإن الإقطاعات تغني عنها. وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدّوا عليهم وغصبوا أملاكهم.

ثم ذكر ما تجدّد في أيامه من عمارة البلاد لاسيما بالموصل، وذلك لحسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة، وهو الذي أمر ببناء دار المملكة بالموصل.

وقال: كانت الموصل أقل بلاد الله فاكهة، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومن أحسن أرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف، وما يجري لأصحابها حتى في خلوائهم.

وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً.

وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئاً.

وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم.

قال:ومن أرائه أنه لما اجتمعت له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استغنت على سدّ الخرق بالمال في غيره.

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال. ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب، وكان ينتصف منهم، ويغزو كلاً منهم في عقر داره ويفتح بلادهم.

قال: وأما غيرته فكانت شديدة، ولاسيما على نساء الأجناد فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها.

قال:وأما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً، ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له. وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

دمشق: الجمعة 12 صفر 1425 هـ

2 نيسان 2004 م